لغز العالم المجنون

يمكن تعريف الجنون ، بصورة مبسطة ، على أنه السلوك والتفكير الشاذ وغير السوي والغير مبرر والغير متوافق مع المعايير الاجتماعية السائدة (Societal Norms) .

قد يسأل أحدكم ما هي المعايير الاجتماعية السائدة ؟ .. فنقول هي السلوكيات والأعراف والأفكار المتفق عليها في مجتمع ما .

مثلا ارتداء الناس للملابس هو العرف السائد في معظم دول العالم ، وعليه فأن رؤية شخص ما عاري الثياب – ربي كما خلقتني – يسعى في الشارع سيعده الناس ضربا من ضروب الجنون . وقد جرى العرف أيضا على أن لا يكلم الإنسان نفسه أمام الآخرين ، وعليه فأن رؤية شخص يتحدث إلى نفسه ، خصوصا حين يكون ذلك مصحوبا بحركات تعبيرية للوجه واليدين ، فأن هذا الأمر يعد أيضا ضربا من الجنون أو المشاكل العقلية – مع أن الكثير من الناس يكلمون أنفسهم في خلواتهم ! – .

المجنون باختصار شديد هو شخص غير طبيعي من ناحية السلوكيات ، وأظن بأن أغلبكم قد مر في حياته بشخص مجنون ، سواء كان فردا من العائلة أو الأقارب أو الجيران ، أو ربما رأيتم أحدهم في الشارع ، ويكون على الأغلب إنسانا بائسا رث الثياب والمظهر غير مدرك لما يدور حوله وقد يقدم على أفعال مفاجأة تتسم بالغرابة والعنف . والمجنون كلغة هو فاقد العقل فاسده ، وهنا يجب التفريق بين المريض العقلي والنفسي ..

فالمجنون – المريض العقلي أو الذهاني – لا يدرك أنه مجنون ، أي أن تصرفاته الغير سوية تكون عن غير وعي وأدارك منه ، فهو يعيش في عالم منفصل تماما عن الواقع ، بينما المريض النفسي أو العصابي قد يدرك جسامة وضعه وقد يسعى لتدارك نفسه بالعلاج . مثلا المريض النفسي قد يتخيل سماع أصوات لا يسمعها سواه ، وهو يدرك بأن ما يسمعه غير طبيعي ، أو يشك في ذلك ، ويصاب بالرعب ، وقد يراجع طبيبا أو يذهب إلى شيخ أو يطلب المشورة وكذا . أما المريض العقلي فتكون هذه الأصوات جزءا من واقعه ، هو مؤمن تماما بأنها موجودة وحقيقية لا يشك في ذلك أبدا . وكثيرا ما يكون المرض العقلي مرتبط بخلل في وظائف أو كيمياء المخ .

أن عدم ادارك المجنون لجنونه يجعله يرى الآخرين ، أي العقلاء ، هم المجانين ، وقد سمعت بأن المصحات العقلية أيام زمان كانت تسرح المجنون الذي يقول عن نفسه مجنون على اعتبار قوله هذا دلالة على شفاءه ، أما المجنون الذي يصر على أنه عاقل فهو بالتأكيد مجنون ، أي تماما كما شاهدنا في الفيلم ، فالأطباء لم يلتفتوا لتأكيدات إبراهيم على أنه عاقل ، بل حسبوا ذلك تأكيدا على جنونه ، لأن معظم المجانين يقولون بأنه عاقلون وينظرون للعقلاء على أنهم مجانين ، وهناك عبارة شهيرة بهذا الخصوص تقول : " في عالم المجانين يعتبر الشخص العاقل هو المجنون" . أي أنك لو أتيت بشخص عاقل وجعلته بين المجانين وراح يتصرف ويتحدث بينهم كعاقل فسيعدونه حتما غريب الأطوار وقد يسمونه مجنونا ! . ويقول المخرج الياباني أكيرا كوروساوا : " في عالم مجنون ، فقط المجنون هو

العاقل " ، لذا لا تحاول أن تكون عاقلا بين المجانين ، وهذا لا ينطبق على المصحات العقلية بل على الواقع العام أيضا .

وهناك حكاية طريفة أحببت أن أقصها لكم بهذا الشأن :

" يقال بأنه كان هناك ملك حكيم يحكم مدينة كبيرة ، كان مرهوب الجانب وفي نفس الوقت محبوبا لحكمته . وكان يوجد في قلب تلك المدينة بئر ماءه صافي كالزلال يشرب منها جميع سكان المدينة وليس لديهم مصدر للماء غيره. وفي إحدى الليالي تسلل أحد الأعداء إلى المدينة وسكب بضعة قطرات من سائل غامض في مياه ذلك البئر ثم توارى وسط الظلام . ومنذ تلك اللحظة أصبح كل من يشرب من البئر يصاب بالجنون .

طبعا جميع الشعب شربوا من البئر ، وجميعهم أصيبوا بالجنون ، ما عدا الملك لأنه كان لا يشرب من البئر مباشرة ويخزن الماء في قصره .

وبالتدريج بدأ أبناء الشعب – المجانين – يتهامسون : " الملك فقد عقله ، أنظروا إلى تصرفاته كم هي غريبة . لا يمكن أن يحكمنا شخص مجنون ، يجب أن نخلعه عن العرش " .

الملك شعر بخوف شديد من شعبه وتوجس ثورتهم عليه ، ولأنه رجل حكيم وذو بصيرة فقد توصل إلى حل نهائي للمشكلة ، فقد أدرك بأن ماء البئر هي سبب جنون شعبه ، فأمر بأن يحضروا له كمية كبيرة من ماء البئر وشرب منها حتى امتلأت بطنه . وفي اليوم التالي عمت الأفراح المدينة بأسرها وأحتفل الناس في الشوارع لأن ملكهم المحبوب قد أستعاد رشده أخيرا !! " .

قصة طريفة ، وهي تدفعنا للتساؤل حول مقدار الصواب في المعايير الاجتماعية ، القيم والأعراف والأفكار ، التي يؤمن بها المجتمع ، ماذا لو كانت معايير مجنونة كما هو الحال مع معايير سكان المدينة أنفة الذكر ، ماذا لو كان من نسميهم مجانين هم العقلاء والعكس صحيح .

طبعا نحن لسنا بالضرورة مجانين أو مختلين عقليا ، لكننا من حيث لا ندري ربما نكون جزء من فكرة أو رأي أو قيم مجتمعية مجنونة .

يقول نيتشه : " الجنون على مستوى الأفراد شيء نادر ، لكنه القاعدة الشاملة على مستوى الجماعات والأحزاب والأمم والعصور " .

ولو تدبرنا هذا القول جيدا لوجدنا بأنه لا يخلو من واقعية ، إن لم يكن هو عين الصواب ، فتاريخ البشر على هذا الكوكب هو عبارة عن سلسلة من الجنون المتواصل والغير مبرر الذي نتج عنه ما لا يعد ولا يحصى من المجازر والمذابح والتدمير والإبادة .

من المؤكد بأن المعايير لا تكون صائبة على الدوام ، وقد تتمسك جماعة بشيء أو مبدأ ما يكون هو الجنون بعينه ، لنأخذ مثلا النازية ، هي في جوهرها جنون مطلق قائم على العنصرية والتمييز بين البشر ، لكن يكذب من يقول بأن النازية لم تشهد رواجا عارما بين الألمان في ثلاثينات القرن المنصرم ، وأن هتلر لم يكن معبود الجماهير . الأمر نفسه يقال عن الماركسية ، ملايين الناس حول العالم نذروا أنفسهم في سبيلها حتى صارت هي الناموس لبعض الدول وأستمر ذلك لعقود ، لكن كل ذلك انتهى إلى فشل ذريع ، وكذلك الأمر بالنسبة للرأسمالية حيث يسعى ويشقى الناس

طيلة حياتهم من اجل أن تتكدس الأرباح في جيوب مجموعة من الأشخاص والشركات التي تحكم العالم من وراء الستار .

قد يقول قائل بأن كلامنا هذا كله مردود علينا ، لأننا كبشر لدينا عقل وأدارك ونستطيع أن نميز بين المعايير الاجتماعية الصائبة والخائبة . لكن هذا غير صحيح تماما بالنسبة لمعظم الناس ، لأننا مخلوقات اجتماعية يحلو لنا أن نتماهى ونندمج مع الفكرة والتيار العام في المجتمع والجماعة كي لا نتعرض للنبذ ولا نعتبر مختلفين ، لذلك غالبا ما نتبنى معايير وأفكار الجماعة حتى ولو من دون فهم كامل لها وقد نستميت في سبيلها . فلنأخذ مثالا بسيطا جدا ، فقبل مائة عام لم يكن سائدا أن تحلق المرأة شعر رجليها – وأنا هنا أتحدث عن الغرب – ، لكن مع مطلع القرن العشرين ، ربما بسبب ظهور التنوره والمايوه ، أصبح ذلك تقليعة ثم صار أشبه بالعرف ، ولا تكاد ترى امرأة إلا وتحلق رجليها ، وفي ذلك من العناء والإزعاج ما تعرفه النساء جيدا ، ولا ضرورة له إلا إرضاء لمعايير اجتماعية معينة ، فأن تظهر المرأة بشعر ساق طويل هو أمر يثير الانتقاد والاشمئزاز مع أنه الشيء الطبيعي . وأذكر حتى ثمانينات القرن الماضي كان من العار على الرجل أن يحلق شاربه ، وأنا أتكلم هنا عن المجتمع الذي عشت فيه ، كان الشارب شيء مقدس ، يحلف به الرجل ، وينظر باحتقار للذين يحلقونه ، أما اليوم فقد تبخرت تلك القدسية وأصبح حلق الشارب أمرا عاديا جدا .

هذه مجرد أمثلة بسيطة ، فهناك أعراف ومعايير وقيم مجتمعية أجل شأنا وأعظم خطرا ، وهي مثيرة للسخرية لو نظرت إليها بعين متجردة من العاطفة والتحيز ، لكن معظم الناس لا يجهدون عقولهم بالتفكير فيها كثيرا

، هم مجبولون منذ نعومة أظفارهم على السير مع الجماعة ، أو كما يسميها البعض بثقافة القطيع ، لا يشذون عن ذلك ولا يحاولون الخروج عن ذلك الخط المرسوم أبدا ، لا بل يغضبون ممن يحاول فعل ذلك . ولأني لا أريد أن أعمم على غيري من الناس لذا سأتكلم عن نفسي فحسب ، أنا أعترف بأني كنت مخلصا دوما للقطيع ، مع أنه قطيع كثير العثار والغبار ، ولم أسعى يوما للخروج عنه ، عن أعرافه وقيمه وأفكاره ، وما أنا سوى "مجعجع" أجيد تسطير الكلمات ، أما الأفعال فصفر على الشمال ، بعبارة أخرى أنا لم أحاول أبدا أن أكون إلا خروفا ، وسأعيش خروفا وأموت خروفا ، امتلكت الإدراك ولم أمتلك يوما الشجاعة ولا الجرأة . العظماء والمؤثرين والمتميزين والمجانين هم فقط من يمتلكون جرأة الخروج عن القطيع . تقول الفيلسوفة والكاتبة آين راد : " تم تعليم الرجال على أن يتوافقوا مع الآخرين ، لكن المبدعون فقط هم الذين لا يتفقون . تم تعليم الرجال على أن يسبحوا مع التيار ، لكن المبدعون فقط هم الذين يسبحون ضد التيار ، تم تعليم الرجال على الوقوف مع الجماعة ، لكن المبدعون فقط هم الذين يقفون بمفردهم " .

لكن ما معنى هذا الكلام ، هل العالم كما نعرفه اليوم هو عبارة عن مجموعات كبيرة من البشر تسعى وتتصرف من دون أدارك منها وفق معايير وخطوط مرسومة وموضوعة سلفا للتحكم والسيطرة ؟ ..

نعم لم لا .. ألا يتم تجييش الملايين من الناس بأسم القومية والمعتقد والشعور الوطني والديمقراطية والدفاع عن الحريات الخ .. أنا لا أتكلم هنا عن الشرق فقط ، لا بل حتى عن الغرب المتطور ، وفي كل مكان ، من

أقصى العالم إلى أقصاه ، يجري تجييش البشر لقضايا معينة ، وقد يخرج الناس إلى الشوارع وهم يصرخون بغضب ، وقد يحطمون كل شيء أمامهم ، وقد يثورون ويسقطون حكومات ... وهم لا يدركون بأنهم في النهاية ليسوا سوى بيادق صغيرة بيد مجموعة من المجانين تحرك العالم وتحكمه بيد من حديد . وأنا هنا لا أتكلم عن نظرية المؤامرة ، بل عن عالم مجنون وفاقد للمنطق والعقل تماما ..

يقول غوته : " لسنا بحاجة لزيارة المصحات العقلية لنعثر على المجانين ، فكوكبنا هو المصحة العقلية لعموم الكون" .

وفي عالم مجنون كهذا من الأفضل للمرء أن يكون مجنونا ، أو أن يتظاهر بالجنون ، "حشر مع الناس عيد " ، وإياه أن يقول بأنه عاقل ، لأنهم لن يدعوه ينجو أبدا من هذه المصحة العقلية البشرية العظيمة .